

الربعى فضائل الشام ودمشق

تحقيق

صلاح الدين المنجد

(مطبوعات المجمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٩٥٢ م)

إحياء الكتب العربية ركن من أركان النهضة القومية فى مختلف بلاد الشرق الأوسط ، سواء أكانت هذه الكتب ذوات عناوين وطنية واضحة ، مثل تاريخ دمشق لابن عساكر ، وفضائل بغداد للسرخسى ، والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن ، أو ذوات عناوين مسجوعة رنانة ، مثل البدر المنظوم فيما ورد فى مصر من موجود ومعدوم للجوهري ، وذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم لابن مسكويه ، والطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد للأدقوى . وهناك نوع ثالث من الكتب القديمة ، وهى من ذوات الصفة الدينية السياسية ، مثل فضائل الأنصار لابن وهب ، وفضائل محمد بن الحنفية للدماثنى . وبعض هذه الكتب مطبوع ، وبعضها الآخر مخطوط ، ومنها ما ليس من هذا أو ذاك ، بل غير معروف عنه شيئاً إلا عنوانه ، أو مقطوعة من متنه ، نقلها ناقل فى تأليفه ، بإشارة أو بغير إشارة إلى مؤلفها وصاحبها الأول .

وأقول إن هذه الكتب التى ينعتها بعض الناعتين بصفات جائزة ، ليست صفراء باهتة المعرفة ، كما يريدون أن يقولوا ، بل تشف محتوياتها عن ألوان أخرى من معرفة العصور الوسطى وأهلها المدرسين (الإسكولائيين) ، وهى معرفة الذين نحن أبناؤهم رغم النسيان ، أو الجهل . ولذا فهذه الكتب جديرة بالنشر والفحص والاستقصاء ، احتراماً لما قدّمت من سبب ، ولما فى نشرها من عرفان بالجميل ، ولما فى هذه الكتب نفسها من رطب ويابس ، وما بينهما من طعوم المعرفة ، فضلاً عن أصول هى أصولنا ، ولا سبيل إلى إنكارها أو التنكر لها

أو جحودها، أو تصغير شأنها في تكويننا . ذلك أننا نريد أن نلهم بتلك الأصول إلمامة تامة مرّة واحدة في غير اختصار ، أو مهمل أو استصغار ، لنفهم منها صياغتنا الحاضرة ، ولنعديل من هذه الصياغة تعديلا توجهه مقتضيات الحياة الحديثة القائمة على حقوق الإنسان ، من حيث الفردية العاقلة والديموقراطية المسئولة .

وربما يقول بعض القائلين إن مقتضيات الحياة الحديثة — والمستقلة — تتطلب الاستمداد الثقافي من الغرب الأوربي والأمريكي فحسب ، لا من الكتب القديمة وأشباهها مما طال عليه سالف الأمد . وهنا موضع الخلاف بيني وبين أصحاب هذا الرأي ، في غير عنت أو تزمّت من ناحيتي ، إذ الطريق السويّ عند العقلين هو النصفة الذي لا يهبط ولا يهوى إلى هذا أو ذلك ، بل يأخذ من كليهما أخذ الممغن الحاسب . بعبارة أخرى ينبغي على الشرق الأوسط أن يأخذ من الشرق والغرب معا ، على قاعدة الاختيار والاقتباس من المنبعين . ومن البديهي أن الاقتباس من المنبع الشرقي معناه إحياء الكتب القديمة في مختلف العلوم والفنون ، بالانشر السليم . ومن البديهي كذلك أن التنوع بالاستمداد من الغرب يجعل البناء الثقافي بالشرق على أساس غير مطمئن (maladjustment) ، وهو أخطر أنواع البناء عند أرباب علم النفس التربوي ، وأرباب علم النفس الاجتماعي كذلك .

ومن النوع الأول من أنواع الكتب التي أشرت إليها في هذه الفاتحة الطويلة كتاب فضائل الشام ودمشق للرّبعي الذي سماه معاصروه أبو الهول ، لسبب لم يتضح لي بعد . والرّبعي مؤرّخ محدّث ، وهو سابق على ابن عساكر مؤلف تاريخ دمشق ، بما يزيد على قرن وربع قرن من الزمان ، وهو كذلك مرجع من مراجع ابن عساكر في تاريخه الكبير . والمتتبع لأخبار كتاب الرّبعي يجدها كلها في تاريخ دمشق ، على قول الناشر في مقدمته . (ص ١٤) . والناشر مشكور لحرصه على تسجيل براهين هذه العبارة في الملحق الأول من بحثه التي ذيل بها هذا الكتاب ، وعنوان هذا الملحق الأول ما في تاريخ دمشق (لابن عساكر) من أخبار كتاب الرّبعي . (ص ٨٣ — ٨٨) .

على أن موضع الأهمية في الإشارة إلى سبق الرّبعي على ابن عساكر ،

ودراسة أزمنة المؤلفين وترتيبهم في التأليف ، لا يتصر على بيان الزمنية والمكانية والطاقة في المعرفة ، فالسابقون السابقون ، واللاحقون اللاحقون . ولذا ينبغي أن يتعمد البحث في هذه النقطة إلى تقرير ما استطاع اللاحقون من إفادة وخطوة إلى الأمام في سبيل التقدم الإنساني ، بالقياس إلى السابقين لهم . هل عمل علماء المسلمين مثلاً على تحقيق هذه الغاية المتحركة دائماً إلى الأمام ، أو أن المدرسية (الإسكولائية) التي ساروا على نهجها كبتت فيهم دوافع التقدم وأنكصتهم عن السير بتأثيرها ، مع العلم بأن التقدم سنة من السنن الكونية .

وإخراج هذا الكتاب الصغير إلى عالم المطبوعات من أفضال المجمع العلمي العربي بدمشق ، وأفضال جهود الناشر كذلك . ورحم الله شيخنا كرد علي ، صاحب الكثير من هذه الأفضال التي تنبئ بها جهود تلاميذه ، وتدل عليها مؤلفاته ومصنفاته ، منذ أوائل هذا القرن العشرين الميلادي .

أما طريقة إخراج هذا الكتاب مطبوعاً من نسخة فريدة ، فلا غبار عليها ، بعد أن ظلت هذه النسخة في ثوب المخطوطات أجيالاً ، بالظاهرة بدمشق . وهي طريقة زعيمة بانتباه المتصدين للنشر العلمي ، لأن بعض المخطوطات فريد فعلاً ، ولا توجد منه سوى نسخة واحدة ، ولا سبيل إلى نشرها إلا بهذه الطريقة ، أو شبهها . ذلك أن الناشر هنا سلط على المتن المفرد مقارنة دقيقة بتاريخ دمشق لابن عساكر ، وبكتاب فضائل دمشق للفزاري ، وأولهما مستمد من الربعي أبواباً بحالها في ثنايا كتابه الضخم ، وثانيهما ناقل منه نقلاً حرفياً كلياً ما عدا الأسانيد الحديثية . (انظر ص ١٤ ، ١٩) . ولذا جاء المتن جلياً ، كأنما استقامت للناشر أكثر من نسخة لمخطوطة الربعي ، كما جاءت الحواشي على قنر معلوم . والناشر ملتزم في الواقع ما رسمه لنفسه من التصاميم الحميد في غير هذا الكتاب ، إثارةً منه للمتن أن يشغل دائماً معظم الصفحة ، ومعظم التفات القارئ الذي سوف يرى أن الكتاب كله واضح ، لا تثقله الحواشي ولا تبطله الشروح (انظر المقدمة ، ص ٢٣) ، وهذا عندي أجود النشر وأحسنه .

غير أنه يبدو لي أن الناشر غلبه هذا القصد في الحواشي إلى مرتبة التقدير ،
 إذ عبر عدداً من الأسماء الجغرافية والألفاظ اللغوية دون أن يعطيها شيئاً من
 ضوئه ، ومثال ذلك الطوانة ، العمود المسفط ، الأشبان ، برزخ المثوى ،
 الخبية ، أبدالاً ، مقبرى ، قينية ، يعفور ، قعاص الغنم ، مستخص الدولة
 (ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ١١٢ ، على التوالي) .
 ذلك أن القارئ يؤوده الرجوع إلى القاموس كلما تعثر بكلمة ، ويحمد
 للناشر دائماً توفير ذلك عليه بحاشية توضيحية تحفظ عليه انصرافه إلى القراءة ،
 والإفادة في غير عناء . ثم إننا بحاجة إلى تدمير الثروة اللغوية بشرح ما نجد
 من ألفاظ طيبة أضحت غريبة على الناس ، وإلى إشاعة استعمال هذه الألفاظ
 أو أوزانها أو اشتقاقاتها ، أملاً في سند ما نفتقر إليه في مدارج النهضة الحديثة
 من مصطلحات الحياة اليومية الجديدة ، بالشرق الأوسط الجديد .

أما الفهارس في هذا الكتاب فعامة متنوعة ، وليس ينقصها إلا فهرس
 للمصطلح ، من أمثال الألفاظ التي قدمت هنا ، فضلاً عن ألفاظ مصطلح
 الحديث التي أصبحت من مصطلح التاريخ كذلك ، وهي في الملحق الثاني
 الذي كتبه الشيخ نوح نجاتي (ص ٨٩ - ١١٠) . والناشر محمود على إيراد
 هذا الملحق الثاني ، لأنه درس في علم الحديث يلند للمؤرخ قراءته ، لمعرفة
 قواعد التحديث ، وطرق التمييز في الأحاديث النبوية بين الصحيح ، والضعيف ،
 والمرفوع ، والموضوع ، والمنكر ، والمعضل ، والباطل ، وهكذا . ذلك لأن
 هذه الألفاظ الاصطلاحية هامة في تدريس مناهج البحث في التاريخ أهميتها
 في علم الحديث ، والمؤرخ الذي يستطيع أن يستخدمها في تقويم مراجعه
 وترتيبها ، ويجعل منها مسباراً لامتحان حقايقه ، هو القيمين بصناعة التاريخ
 المأمون من القارئ على مقارفتها .

وفي هذا الملحق الثاني كذلك إشارات إلى كعب الأخبار وإسرائيلياته
 (ص ١٠٩) ، وهي جديرة بتفكير القارئ العربي ، ولا سيما بعد أن خرج
 البرلمان بحثه في كعب الأخبار . (Jewish Social Studies, Vol. 5, 1953) .
 ومن الجديد على في هذا الكتاب أن عبد المطلب جد الرسول دفن بدمشق

(ص ٤٩) . وأن بنى الأصفر تسمية قديمة للدلالة على ملوك غرب أوربا والبابوية (ص ٧٨) ، وهي تسمية شرح القلتمشندى أصولها في كتابه صبح الأعشى . ومن الواضح بعد هذه الإشارات إلى محتويات هذا الكتاب أن الكتب القديمة لا تزال ذخيرة دفيئة ، وما ينصح منها للقارئ الأخصائى ينفع كذلك السياسى ، والمؤرخ ، واللغوى ، والمحدث ، فضلا عن القارئ العام .

محمد مصطفى زيادة

ديسمبر ، سنة ١٩٥٣
مصر الجديدة